الروس في القرن العاشر الميلادي
بين ابن فضلان وقسطنطين السابع

أ.د. محمد زايد عبد الله
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة الفيوم
mza00@fayoum.edu.eg

الملخص

احتك العرب المسلمون بشعوب أوروبا الشرقية من خلال المعارك العسكرية التي خاضتها الدولة الإسلامية ضد الدولة البيزنطية وأرمينية ومملكة الخزر اليهودية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري برزت مسألة الاهتمام بالعلوم الجغرافية والتاريخية في الدولة الإسلامية، فكثر التأليف في المسالك والممالك ووصف الأقاليم، فكتب الكثير من الجغرافيين المسلمين عدة مؤلفات جغرافية خلال تلك الفترة. وبمجرد ظهور الروس على مسرح الأحداث في العالم الوسيط خلال القرن التاسع الميلادي، فطن الجغرافيون والمؤرخون العرب والبيزنطيون لهذا الأمر، وكان من بين الجغرافيين المسلمين أحمد ابن فضلان الذي تحدث عن الروس في رحلته التي قام بها إلى حوض نهر الفولجا عام ٣٠٩هـ/٩٢١م. وعلى الجانب الآخر، لقيَّ الروس اهتمامًا كبيرًا في كتابات الإمبراطور قسطنطين السابع، الذي وصفهم بشكلٍ مفصل، وأظهر علاقتهم مع البيزنطيين والبلغار والبُشناق والخزر في عدة مؤلفات له، ونحن هنا نقوم بعمل مقارنة بين كتابات ابن فضلان وقسطنطين السابع لتكتمل الصورة الذهنية عن الروس من خلال المصادر العربية واليونانية خلال القرن العاشر الميلادي.

الكلمات الدالة: الروس، البيزنطيون، نهر الفولجا، ابن فضلان، قسطنطين السابع، جغرافيا.

المقدمة:

ما إن أشرقت شمس الإسلام على شبه الجزيرة العربية وفارس وبلاد الشام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، حتى توجه العرب المسلمون إلى حدود أوربا الشرقية، فخاضوا الكثير من المعارك العسكرية ضد الدولة البيزنطية وأرمينية ومملكة الخزر اليهودية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري برزت مسألة الاهتمام بالعلوم الجغرافية والتاريخية في الدولة العربية الإسلامية، وذلك من جراء اهتمام الحكام

المسلمين بمعرفة تلك الأصقاع الشمالية والشرقية، فكثر التأليف في المسالك والممالك ووصف الأقاليم والمدن والجبال والأنهار والقفار، فكتب الكثير من الجغرافيين المسلمين عدة مؤلفات جغرافية خلال تلك الفترة، أمثال محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٢هـ/٨٤٧م)، الذي ألف عدة مؤلفات في الجغرافيا، كان أهمها كتابه "صورة الأرض"، وتلاه الجغرافي يعقوب بن إسحق الكندي (ت ٢٦٠م/٨٧٤م) الذي ألف ما يربو على ستة عشر كتابًا في الفلك والجغرافيا، كان أهمها كتاب "رسم المعمور من الأرض"[١]، وفي نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري دوَّن اليعقوبي (٢٨٤هـ/٨٩٧م) مؤلَفِه "كتاب البلدان"[٢]، والسُرُخْسِي (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) في كتابه "المسالك والممالك"[٣]، وابن الفقيه المُلقب بالهمداني (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) في "كتاب البلدان"[٤].

ظهور الروس في كتابات الجغرافيين والمؤرخين المسلمين:

بمجرد ظهور الروس Rus على مسرح الأحداث في العالم الوسيط خلال القرن التاسع الميلادي، فطن الجغرافيون والمؤرخون العرب والبيزنطيون لهذا الأمر، فذكرهم اليعقوبي أنهم قومٌ من الشماليين الوثنيين هاجموا مدينة أشبيلية الأندلسية عام ٢٢٩هـ/٨٤٤م[٥]، إشارةً إلى أصلهم الاسكندنافي Scandinavian، حيث أُطلق عليهم فيما بعد اسم "الفارانجيون" Varangians أو الورنك[٦]، الذين هاجموا الأراضي البيزنطية، وحاصروا القسطنطينية للمرة

---

[١] الخوارزمي (أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، ت ٢٣٢هـ/٨٤٧م)، *صورة الأرض من المدن والجبال والبحر والجزائر والأنهار مستخرج من كتاب بطلميوس القلوزي*، نشره/ هانز فون مريك، فيينا، ١٩٢٦م. وانظر: محمد محمود محمدين، *التراث الجغرافي الإسلامي*، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م، ص ٢٠-٢١.

[٢] اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، *كتاب البلدان*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن، ١٨٦٠م.

[3] Hraundal, T.J., "The Rus in Arabic Sources: Cultural Contacts and Identity," Ph.D. Diss. Centre for Medieval Studies, University of Bergen, 2013, pp. 47, 51.

[٤] ابن فقيه الهمداني (أبوبكر أحمد بن محمد، ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، *مختصر كتاب البلدان*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٨٥م.

[٥] اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ص ١٤٤.

[٦] أُشتقت كلمة فارانجي Vaeringjar في لغة الاسكندنافيين من كلمة vár بمعنى "عهد"، وعلى ذلك فإن كلمة فارانجي تعني "المعاهدين" أو "الحلفاء". انظر: عبد العزيز محمد عبد العزيز، "المرتزقة الإنجليز

الأولى في الثامن عشر من يونيو عام ٨٦٠م/ ربيع الآخر ٢٤٦هـ[٧]، في الوقت الذي أشار فيه ابن خُرَّدَاذبِة (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) إلى أصلهم الصقلبي (السلافي Slavs)، وأن الكثير منهم تجار يحملون أنواع البضائع الشمالية التي تشمل على جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف إلى أراضي الروم (الدولة البيزنطية)، فتقوم الإدارة البيزنطية بتحصيل المكوس الجمركية على تجارات الروس بواقع العُشر مما يحمل الروس من بضائع، كما ذكر ابن خُرَّدَاذبِة رحلات الروس التجارية إلى أقاصي الأرض، فهم يمرون بمملكة الخزر Khazaria ربما عبر نهر الدون Don، ومنها إلى بحر الخزر (قزوين)، ثم إلى جرجان وتركستان، التي كانت تقع تحت السيطرة الإسلامية، فيحملون تجاراتهم إلى بغداد على ظهور الإبل، وكان الروس يستخدمون المترجمين من أصل صقلبي (بلغاري Bulgarian) للتواصل مع العرب في بغداد، ربما لدخول بلغار الفولجا الإسلام، وتواصلهم مع العرب، ومعرفتهم اللغة العربية. وقد اعترف ابن خُرَّدَاذبِه أنهم كانوا يدينون بالمسيحية، ولهذا دفع منْ مكث منهم في بغداد الجزية للمسلمين[٨].

لم يتوقف ذكر الروس عند مؤرخيّ وجغرافيّ القرن التاسع الميلاي، بل سار على نهجهم ونقل عنهم جغرافيو ومؤرخو القرن العاشر الميلادي، أمثال ابن رُسته (ت ٣١٠–٣٣٧هـ/٩٢٢–٩٤٨م) في كتابه "الأعلاق النفيسة"، عندما ذكر أن الروس يقطنون في جزيرة يحيطها الماء من كل مكان، نظرًا لكثرة الأنهار التي تجري في أراضيهم، وربما كان يقصد بذلك أنهار الفولجا Volga والدنيبر Dnieper والدنيستر Dniester، كما ذكر أن الملكية

في الإمبراطورية البيزنطية ١٠٦٦–١٢٠٤م"، **حولية التاريخ الإسلامي والوسيط**، كلية الآداب – جامعة عين شمس، مج ٤ (٢٠٠٤–٢٠٠٥م)، ص ١٧١ (هامش ٢٩).

[7] *The Russian Primary Chronicle, Laurentian Text*, Trans. S. H. Cross & O. P. Sherbowitz - Wetzor, Cambridge, 1953, p. 60; Georgius Monachus, *Vitae Recentiorum Imperatorum*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838) IV.21, p. 826; Theophanes Continuatus, *Chronographia*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838) IV.33, p. 196; Symeon Magister, *Annales*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838) 4.38, pp. 674-675; John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History 811-1057*, Trans. J. Wortley, (Cambridge University Press 2010) 5.18, pp. 107-108; Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, 2 Vols. Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 13-14 (Bonn 1838) II, p. 173.

[٨] ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)، *كتاب المسالك والممالك*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٨٩م، ص ١٥٤.

هي نظام الحكم السائد لدى الروس، وأنهم يُطلقون على ملكهم اسم "خاقان"Khagan[٩]، وهم يتاجرون مع البلغار، ويغزونهم في بعض الأحيان، فيركبون سفنهم في الأنهار الكثيرة؛ لأنهم يمتازون بالبسالة والشجاعة، فإذا نزلوا بمكانٍ لم يتركوه حتى ينهبوه ويهلكوه ويستبيحون حرماته[١٠]، كما يتطرق ابن رُسته للنظام القضائي عند الروس، فهم يتركون أمر الفصل في دعواهم إلى ملكهم، فإنْ لم يرض الناس بحكم الملك، أمر الملك بالاحتكام إلى السيف[١١]. ويرى ابن رُسته أن الروس يدفنون نبلاءهم مع ذهبهم وطعامهم وشرابهم وأموالهم، وكذلك زوجاتهم اللائي يُدفن أحياءً معهم في قبورهم[١٢].

وخلال القرن نفسه، كتب الجغرافي والمؤرخ المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) عن الروس أنهم من ولد يافث بن نوح[١٣]، وأن بحر نيطس (الأسود) وبحيرة مايطس (مايوتيك Meiotic/ بحر آزوف Azov) هما المسار الذي يسلكه التجار بين الأراضي البيزنطية والبلغارية والروسية، كما كان التجار الروس يدخلون بمراكبهم إلى الأراضي الخزرية ويصلون إلى بحر الخزر (قزوين)[١٤]، ولذلك وضعت الإدارة البيزنطية قوة من سفنها الحربية في البحر الأسود لمواجهة الهجمات الروسية[١٥]. أما الأُصطخري (ت قبل ٣٥٠هـ/٩٦١م) فقد ذكر في كتابه "المسالك والممالك" أن الروس متاخمون للبيزنطيين من الشمال، وأن ملكهم

---

[٩] ابن رُسته (أبو علي أحمد بن عمر، ت ٣١٠–٣٣٧هـ/٩٢٢–٩٤٨م)، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٩٢م، ص ١٤٥. ظهر مصطلح خاقان Khagan في حولية سانت بيرتين في أحداث عام ٨٣٩م، عندما أرسل خاقان الروس رسله إلى الإمبراطور لويس التقي Louis the Pious في إنجيلهيم Ingelheim لتوطيد أواصر الصداقة بين الجانبين. انظر:
The Annals of St-Bertin, Trans. J. L. Nelson (Manchester University Press: Manchester 1991), p. 44.

[١٠] ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٥.

[١١] ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٦.

[١٢] ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٥–١٤٧.

[١٣] المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *أخبار الزمان ومنْ أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران*، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ٦٨.

[١٤] المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، ج ١، باريس، ١٨٦١م، ص ٢٧٣–٢٧٤.

[١٥] المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *التنبيه والإشراف*، ليدن، ١٨٩٣م، ص ١٤١.

كان يقيم في مدينة كويابة (كييف Kiev)، وهم لا يسمحون لأحد بدخول أراضيهم من الزائرين أو التجار[١٦]. كما وردت المعلومات نفسها عند ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٥م) في كتابه "المسالك والممالك"[١٧]، وأضاف أن الروس كانوا يحملون من بلادهم العسل والشمع والوبر والجلود (جلود الخز)، والتي يبيعونها للخزر والبلغار[١٨]، كما يحملون السمور السود والثعالب السود والرصاص[١٩].

وفي نهاية القرن العاشر الميلادي، ظهر كتاب الجغرافي الفارسي المجهول (ت ٣٧٢هـ/٩٨٣م) في مؤلفه "حدود العالم"، الذي يطلق على نهر الدنيبر اسم "نهر الروس"، الذي ينبع من أرض السلاف شمال غرب أوروبا متجهًا ناحية المشرق حتى يدخل حدود الروس، وهناك يمر بعدة مدن أشهرها العاصمة كويافه (كييف)، ثم يعرج جنوبًا حيث حدود البشناق، ويصف الجغرافي المجهول بلاد الروس ومدنها، فيحدها من الشرق بلاد البشناق؛ ومن الجنوب نهر روتا (البحر الأسود)؛ ومن الغرب بلاد الصقالبة (بلغار الدانوب)؛ ومن الشمال خرائب وغابات. والروس عند الجغرافي المجهول سيئو الخُلق والطباع، محتالون متمردون مقاتلون، وهم يحاربون جميع الأقوام المحيطين بهم، ويُطلقون على ملكهم "خاقان الروس"، ويعطون العُشر من كل غنائمهم وتجاراتهم إلى ملكهم كل عام، وهم يستعبدون السلاف، ويتخذونهم كخدم لهم. ويلبس الروس السراويل، ويضعون على رؤوسهم قلانس تتدلى إلى القفا، ويضعون مع الميت كل شئ كان له من ثياب وحليّ وطعامٍ وشرابٍ[٢٠].

رحلة ابن فضلان إلى بلاد الروس:

يعتبر أحمد بن فضلان من أفضل الجغرافيين المسلمين الذين تحدثوا عن الروس في رحلته التي قام بها إلى حوض نهر الفولجا في عام ٣٠٩هـ/٩٢١م، فتحدث عن موطنهم

---

[١٦] الأُصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي، ت قبل ٣٥٠هـ/٩٦١م)، *المسالك والممالك*، تحقيق/ محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ١٣٢.

[١٧] ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي، ت ٣٦٧هـ/٩٧٥م)، *كتاب المسالك والممالك*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٧٣م، ص ٢٨٥.

[١٨] ابن حوقل، *كتاب المسالك والممالك*، ص ٢٨١.

[١٩] ابن حوقل، *كتاب المسالك والممالك*، ص ٢٨٦.

[٢٠] مجهول، *حدود العالم من المشرق إلى المغرب*، تحقيق وترجمة عن الفارسية/ السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٦١، ١١٢–١١٣، ١٨٧، ١٨٩–١٩١.

وطباعهم وديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما وصف أعمالهم التجارية مع الأقوام المجاورة من بيزنطيين وبلغار وخزر، بالإضافة إلى تعرضه لنظام الحكم والإدارة والحياة العسكرية والقضائية[٢١]. وكان أحمد بن فضلان رسولًا للخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) إلى ملك البلغار ألمش بن يلطوار (ت ٣١٣هـ/ ٩٢٥م)، والذي كان قد اعتنق الإسلام، فسافر ابن فضلان من بغداد مع ثلاثة من مندوبيّ الخلافة في الحادي عشر من صفر ٣٠٩هـ/ الحادي والعشرين من يونية ٩٢١م، فوصلوا إلى بلاد الغُز التركية، ومنها إلى بلاد بلغار الفولجا، التي وصلها في الثاني عشر من محرم ٣١٠هـ/ الحادي عشر من مايو ٩٢٢م[٢٢]، وهناك التقى بالتجار الروس الذين قدِموا للتجارة مع البلغار عند نهر الفولجا[٢٣]، وقد نقل عن تلك الرحلة عددٌ من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين كالمسعودي والأُصطخري وياقوت الحموي[٢٤].

قسطنطين السابع والروس:

لقيَّ الروس اهتمامًا كبيرًا في كتابات الإمبراطور قسطنطين السابع Constantine VII (٩١٣-٩٥٩م)، الذي وصفهم بشكلٍ مفصل، وأظهر علاقتهم مع البيزنطيين والبلغار والبُشناق والخزر في كتابه "عن إدارة الإمبراطورية" De Administrando Imperio خلال الفصول (الثاني، والرابع، والتاسع، والثاني والأربعين)[٢٥]، كما ذكرهم في كتابه "عن

---

[٢١] ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، ت بعد ٣١٢هـ/٩٢٤م)، *رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م*، تحقيق/ سامي الدهان، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت ١٩٨٧م، ص ١٤٧-١٦٦.

[٢٢] زكي محمد حسن، *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٢٣-٢٥.

[٢٣] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ص ١٤٥.

[٢٤] المسعودي، *مروج الذهب*، ج ١، ص ٢٧٣-٢٧٤؛ الأُصطخري، *المسالك والممالك*، ص ١٣٢؛ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، *معجم البلدان*، خمسة أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ١/٤٨٦-٤٨٨؛ ٣/٧٩-٨٣.

[25] Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio*, Ed. G. Moravcsik, Trans. R. J. H. Jenkins, (Washington, D.C. 1967), 2, 4, 9, 42, pp. 48-53, 65-63, 184-188.

وقد تمت ترجمته إلى اللغة العربية: قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، عرض وتحليل وتعليق/ د. محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٤-٥٦، ٦٠-٦٤، ٦٦، ١٤٩-١٥٠.

مراسم البلاط البيزنطي" De Ceremoniis Aulae Byzantinae، من خلال حديثه عن استقبال الأميرة الروسية أولجا Olga (ت ٩٦٩م) في القسطنطينية عام ٩٥٧م، ووجود الروس المرتزقة في الجيش البيزنطي منذ عهد الإمبراطور ليو السادس خلال حملته على كريت عام ٩١١م، والمخصصات المالية لهؤلاء الجنود، كذلك اشتراكهم في الحملة البيزنطية على كريت عام ٩٤٩م في عهد قسطنطين السابع نفسه[٢٦].

لقد وقع اختيارنا على ابن فضلان وقسطنطين السابع؛ نظرًا لكونهما أكثر منْ كتبوا عن الروس خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، كما أن ابن فضلان كان معاصرًا للإمبراطور قسطنطين السابع، الذي كان يبلغ من العمر أثناء قيام ابن فضلان برحلته حوالي ستة عشر عامًا، بالإضافة إلى أن ابن فضلان أُعتبر من أفضل منْ كتب باللغة العربية عن الحياة الاجتماعية لدى الروس خلال القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، كما تميزت رسالته بذكر التنوع الثقافي لدى الشعوب التي زارها، على الرغم من مخالفة بعضها للعادات والتقاليد والعقيدة الإسلامية[٢٧].

وعلى الجانب الآخر، كان الإمبراطور قسطنطين السابع من أشهر الأباطرة البيزنطيين ثقافةً ونشاطًا علميًا خلال العصور الوسطى، ويرجع ذلك إلى الأحداث الاجتماعية والسياسية داخل الأسرة المقدونية خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، حيث انزوى قسطنطين في القصر الإمبراطوري؛ نظرًا لاستيلاء قائد الأسطول البيزنطي السابق وزوج أمه والإمبراطور الحالي رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus (٩١٩-٩٤٤م) على مقاليد الحكم، فكرَّس قسطنطين جُل جهده في التأليف في كافة المجالات، وما يهمنا هنا عن الروس هو كتابيه: "عن الإدارة"، و "عن المراسم". فكتابه "**عن الإدارة الإمبراطورية**"، وهو كتاب رائع في فن السياسة والإدارة، ومقال خطير عن الدبلوماسية

---

[26] Constantine Porphyrogennnetos, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, 2 Vols. Ed. I. Reiskii, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 7-8, (Bonn 1829-1830); *Le livre des cérémonies*, 2 Vols. Trad. A. Vogt, 2me ed., Paris, 1967; *The Book of Ceremonies*, 2 Vols. Trans. A. Moffatt and M. Tall, **Byzantina Australiensia** 18 (1-2), (Canberra, 2012), II.15 [R594-598], pp. 594-598; II.44 [R651-652, 654-655], pp. 651-652; 654-655; II.45 [R664, 667, 673-674], pp. 664, 667, 673-674.

[27] Montgomery, J.E., "Ibn Faḍlān and the Rūsiyyah," ***Journal of Arabic and Islamic Studies*** 3 (2000), p. 3.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ص ٣٩، ٤١.

البيزنطية، وتصور دقيق لوجهة النظر البيزنطية تجاه الشعوب المحيطة بالإمبراطورية، وقد أهداه قسطنطين لابنه رومانوس الثاني Romanus II (٩٥٩-٩٦٣م)؛ ليكون مرجعًا له في إدارة الإمبراطورية كلما كانت الحاجة مُلحة لذلك[٢٨]. وقد اعتمد قسطنطين فيما أورده عن الروس على التقارير الشفوية التي قدمها مبعوثو الإمبراطور الذين زاروا الشعوب المجاورة[٢٩]، كما أخذ معلوماته من بعض الروس الذين زاروا القسطنطينية[٣٠].

أما الكتاب الثانى "**عن مراسم البلاط البيزنطى**" De Ceremoniis Aulae Byzantinae، فقد وضعه قسطنطين السابع بعد عام ٩٥٧م؛ ليكون مرجعًا لأعضاء البلاط البيزنطي بخصوص قواعد البروتوكول التي ينبغى العمل بها، والتي عالجها قسطنطين بشكلٍ موسوعي لتمجيد الإمبراطور وحاشيته، إلى جانب قواعد الدبلوماسية البيزنطية، وطبوغرافية مدينة القسطنطينية، خاصة القصر الكبير[٣١].

الروس لدى ابن فضلان وقسطنطين السابع:

ننتقل الآن لعقد مقارنة بين ما ورد لدى ابن فضلان وقسطنطين السابع عن الروس، فقد ذكر ابن فضلان أن أراضي الروس تقع وراء أراضي الصقالبة (بلغار الفولجا)[٣٢]، في حين ذكر قسطنطين السابع أن الروس يقطنون إلى الشمال الغربي لأراضي البشناق[٣٣]، حيث يقطنون في أعالي نهر الدنيبر، وهم يُبحرون جنوبًا في النهر حتى يصلوا إلى أراضي البيزنطيين[٣٤]، وهو الوصف نفسه الذي وُجد عند الجغرافيين المسلمين في القرن العاشر

---

[28] Constantine, *De Administrando Imperio*, Proem: pp. 44-47; Kažhdan, A., "De Administrando Imperio", **Oxford Dictionary of Byzantium** 1, p. 593.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ص ٣٩، ٤١.

[29] Constantine, *De Administrando Imperio*, 7-8, pp. 54-57.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٧-٨، ص ٥٧-٥٩.

[30] Constantine, *De Administrando Imperio*, 9, pp. 56-63.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٩، ص ٦٠-٦٤.

[31] McCormick, M., "De ceremoniis aulae byzantinae", **Oxford Dictionary of Byzantium** 1, p. 595.

[٣٢] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٩.

[33] Constantine, *De Administrando Imperio*, 37, pp. 168-6169.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٣٧، ص ١٣٨.

[34] Constantine, *De Administrando Imperio*, 42, pp. 184-185.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٤٢، ص ١٤٩.

الميلادي أمثال الجغرافي الفارسي المجهول، الذي ذكر أن بلاد الروس يحدها من الشرق بلاد البُشناق؛ ومن الجنوب نهر روتا (البحر الأسود)؛ ومن الغرب بلغار الدانوب[٣٥]، ومن الواضح أن ابن فضلان كان من أوائل الجغرافيين الذين شاهدوا الروس وجهًا للوجه في بدايات تكوين مملكتهم عبر أراضي السهوب، قبل أن يتوسعوا على حساب بلغار الفولجا والبشناق والبيزنطيين[٣٦].

وصف ابن فضلان الروس بأنهم كاملو الأبدان كالنخيل، وهم يمتازون بالبشرة فاتحة اللون[٣٧]، تلك البشرة المرتبطة بالشعر الأشقر والعيون الزرقاء، وهي الملامح التي تشكلت بفعل تراكم الثلوج وشدة البرد وعدم سطوع الشمس لفترات طويلة في أراضي الروس[٣٨]. وكان الرجل يلبس كساءً يضعه على أحد شقيه، ويُخرج يديه منه[٣٩]، كما شدَّت الروسيات على صدورهن أوعيةً من حديدٍ أو فضةٍ أو نحاسٍ، وذلك حسب غنى زوج كل واحدةٍ منهن، كما لبسّن أطواقًا ذهبيةً أو فضيةً في أعناقهن؛ لأن الروسي إذا ما امتلك من المال ما مقداره عشرة آلاف درهم، صاغ لزوجته طوقًا، وكل عشرة آلاف إضافية يزيدها طوقًا آخر؛ فلبست بعضهن الكثير من الأطواق، ولكن كانت العقود المنظومة من الخرز الأخضر المصنوع من الخزف من أهم أنواع الحليّ عند الروس، حتى أن الخرزة الواحدة كانت تساوي عندهم درهمًا[٤٠]، كما كانت المرأة تلبس الأساور والخلاخيل[٤١].

---

[٣٥] مجهول، *حدود العالم*، ص ٦١–٦٢، ١٨٩–١٩١.

[٣٦] عن العلاقات الروسية البشناقية، وعلاقة الروس مع بلغار الفولجا انظر: طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥–١٠٥٤م*، دار مصر العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٦٦–١٨٣، ٢٢٣–٢٢٦.

[٣٧] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٩.

[٣٨] المسعودي، *أخبار الزمان*، ص ٦٩؛ الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م)، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*، نشره/ أ. ميهرين، ليبيزج، ١٩٢٣م، ص ٢١، ٢٧٥.

[٣٩] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٩. يحلق بعض الروس لحاهم، وبعضهم يفتلها مثل أعراف الدواب. انظر: ابن حوقل، *كتاب المسالك والممالك*، ص ٢٨٦.

[٤٠] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٠–١٥١. يرى أ.د. طارق منصور أن ذلك الخرز الذي استعمله الروس كحُلي ربما تم صناعته من حجر الفيروز. انظر: طارق منصور، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ٢٥١.

[٤١] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٦١.

كان الروس شرهين في شرب النبيذ، فهم يشربونه طيلة الليل والنهار، حتى أن ابن فضلان ذكر أن أحدهم ربما يموت وهو ممسك بالقدح في يده[٤٢]؛ ولذلك فهم قذرون، لا يستبرأون من غائطٍ أو بولٍ أو جنابةٍ، كما لا يغسلون أيديهم بعد تناول الطعام[٤٣]، ولكنهم كانوا يغسلون وجوههم كل صباح بماءٍ آسن، تحمله بعض الجواري في إناءٍ كبير، فيغسل سيدها وجهه ويديه ورأسه، ثم يدفعه إلى صاحبه، فيفعل كما فعل سابقه، ويظل الحال هكذا حتى يغسل كل منْ كان في البيت في الإناء نفسه، فإذا مرض أحدهم، وكان من الفقراء أو العبيد، عزلوه في خيمة، وأمدوه بالماء والخبز، فإنْ برئَّ، سمحوا له بالعودة إليهم والاختلاط بهم، وإنْ مات وكان من كبار القوم أحرقوه، ولكنه إنْ كان من العامة تركوه لتأكله الكلاب وجوارح الطيور[٤٤].

كان ملك الروس – في كتابات ابن فضلان – يعيش في قصرٍ كبير، ويتخذ لنفسه مستشارين بلغ عددهم أربعمائة من رجال الحرب وأهل الثقة، وكان هؤلاء المستشارون يجلسون مع الملك في بلاطه، فإذا مات الملك يموتون بموته، وكان يحق لنبلاء الملك أن يصطحبوا خدمهم إلى بلاط الملك، حيث كان لكل نبيل جاريتان، واحدة تقوم على خدمته وإعداد طعامه، أما الأخرى فهي للترويح عنه، وكان لملك الروس خليفةً يقود الجيوش، ويشن الهجوم على الأقوام المجاورة، ويخلف الملك في رعيته[٤٥].

وعلى الرغم من تلك المعلومات المهمة التي أوردها ابن فضلان عن نظم الحكم والإدارة عند الروس، لم يأت قسطنطين السابع بأي ذكر عن نظام الحكم في الأراضي الروسية، وانحصرت معلوماته عن علاقة الروس بمنْ جاورهم، خاصةً البشناق، الذين حلّوا محل الخزر في منطقة السهوب[٤٦]، فخاطب الروس ودهم ليكونوا في سلامٍ معهم إذا أرادوا شن الحرب على جيرانهم، حتى لا يأتي البُشناق ويقومون بتدمير أراضي الروس[٤٧]، خاصةً

---

[٤٢] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٥.

[٤٣] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥١.

[٤٤] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٥.

[٤٥] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٦٥.

[٤٦] طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ١٣.

[47] Constantine, *De Administrando Imperio*, 2, pp. 48-51.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٢، ص ٥٤.

بعد استخدام الدولة البيزنطية لهؤلاء البُشناق في محاربة الروس الذين اعتادوا الإغارة على الأراضي البيزنطية، خاصةً إقليم خرسون Cherson شمال البحر الأسود(٤٨).

خصص قسطنطين السابع جزءًا من كتابه "**عن مراسم البلاط**" لزيارة أولجا "الأرخونتيسا" archontissa (الحاكمة لكل قبائل الروس والوصية على الملك الروسي القاصر سفياتوسلاف منذ عام ٩٤٥م) للقسطنطينية التي استمرت خلال الفترة (١٩ سبتمبر– ١٨ أكتوبر ٩٥٧م)(٤٩)، فوصف قسطنطين مراسم الاستقبال البيزنطي للأميرة الروسية أولجا ومرافقيها من الأمراء والأميرات، والتجار الروس، ويمكن تلخيص المراسم في استقبال الضيوف في قاعة جستنيان، وهي القاعة الإمبراطورية التي تحتوي على العرش الإمبراطوري الذهبي، حيث يجلس الإمبراطور قسطنطين السابع وزوجته الإمبراطورة هيلينا Helena، ومعهما الأميرة ثيوفانو Theophano زوجة ابنهما رومانوس الثاني، كما حضر النبلاء والنبيلات البيزنطيات على شرف استقبال الأميرة الروسية أولجا(٥٠)، ويدل ذلك على مدى أهمية الحاكم الروسي في السياسة والدبلوماسية البيزنطية(٥١).

بعد هذا الاستقبال الحاشد، جرت جلسة من المناقشات المطولة بين الإمبراطور قسطنطين السابع والأميرة أولجا بحضور كل من الإمبراطورة هيلينا وأبنائها، بالإضافة إلى الأمراء والأميرات الروس من أقارب الأميرة الروسية، ثم تم دعوة الجانب الروسي لتناول الطعام على المائدة الإمبراطورية، التي صحبتها الأغاني التي أنشدها منشدي كنيستي الرسل المقدسين والحكمة المقدسة، وبعدها تم منح الجانب الروسي (الذي اشتمل على ٥٣ من المبعوثين وأقارب الأميرة أولجا والمترجمين والخدم، و٤٣ تاجرًا) العطايا المالية والهدايا، وقد انتهت الرحلة في الثامن عشر من أكتوبر عام ٩٥٧م، عندما قام الإمبراطور قسطنطين السابع بوداع الأميرة الروسية والوفد المرافق لها(٥٢)، بعد أن استطاعت أولجا وضع الروس

---

[48] Constantine, *De Administrando Imperio*, 2-7, pp. 49-55.
قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٢–٧، ص ٥٤–٥٨.

[49] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.15 [R594], p. 594.

[50] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.15 [R595-596], pp. 595-596.

[٥١] طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ٤٤.

[52] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.15 [R596-598], pp. 596-598.

على خريطة السياسة الدولية آنذاك، والتأكيد على الميزات التجارية التي حصل عليها الروس من قبل في معاهدتي ٩٠٧م و٩٤٥م[٥٣].

على الرغم من المعلومات المقتضبة عن الحياة العسكرية في رحلة ابن فضلان، والتي ذكر فيها أن كل الذكور من الروس يحملون فأسًا وسيفًا وسكينًا لا يفارقهم أبدًا، كما حملت النساء السكاكين المعلقة على صدورهن[٥٤]، فإن كتابات قسطنطين السابع كانت من أهم المصادر التي أشارت إلى التواجد الروسي داخل الجيش البيزنطي منذ عصر والده الإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م)، حيث اشترك المرتزقة الروس في الحملة البيزنطية على كريت عام ٩١١م، وكان عدد الجنود الروس في تلك الحملة حوالي سبعمائة[٥٥]، تقاضوا ما مجموعه قنطارًا ذهبيًا kentenaria (مائة رطل، أي ما يساوي ٧٢٠٠ نوميزما nomisma)، فحصل الواحد منهم على حوالي ١٠,٢٨ نوميزما[٥٦]، كما ذكر قسطنطين عدد الجنود الروس في الحملة البيزنطية الثانية على كريت عام ٩٤٩م، والذين بلغ عددهم ٦٢٩ جندي[٥٧]، تحملهم تسع سفن[٥٨].

أفاض كل من ابن فضلان وقسطنطين السابع بمعلوماتهما الغزيرة عن التجار الروس، الذين اتجهوا ببضائعهم إلى الممالك المجاورة مثل البلغار والخزر والدولة البيزنطية؛ فقد أعطى ابن فضلان معلومات مباشرة عن التجار الروس حينما رآهم رأي العين عند نهر الفولجا[٥٩]، فذكر أنهم كانوا يتجهون إلى أراضي بلغاريا على نهر الفولجا للتجارة[٦٠]، وهم

---

[53] Shepard, J., "The origins of Rus' (*c*.900–1015)," In *The Cambridge History of Russia*, Vol. 1 (From Early Rus' to 1689), Ed. M. Perrie (Cambridge University Press, 2006), p. 58.

[٥٤] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٩-١٥١. كان الروسي إذا وُلد له ولد يقدم له سيفًا مسلولًا، وكانت أهم سيوفهم السليمانية. انظر: ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٥-١٤٦.

[55] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.44 [R651-652, 654], pp. 651-652, 654.

[56] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.44 [R654], p. 654. See also: Theotokis, G., "Rus, Varangian and Frankish Mercenaries in the Service of the Byzantine Emperors (9th-11th C.) Numbers, Organisation and Battle Tactics in the Operational Theatres of Asia Minor and the Balkans," ***BYZANTINA ΣΥΜΜΕΙΚΤΑ*** 22 (2012), p. 132.

[57] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.44 [R664], p. 664.

[58] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.45 [R673-674], pp. 673-674.

[٥٩] خليل حسن الزركاني، "الانطباعات الاقتصادية للرحالة العرب عن روسيا"، ***مجلة التراث العلمي العربي***، عدد ٧، جامعة بغداد، ص ٤١.

يحملون الرقيق الأبيض، ربما من قبائل السلاف الذين خضعوا للروس لفترة من الوقت، وكان التجار الروس يدفعون العُشر لملك البلغار كضريبة على تجاراتهم[٦١]. وكان الروس عندما ينزلون على نهر الفولجا، يبنون على ضفافه بيوتًا من الخشب للاحتماء من البرد، ويتشارك في البيت الواحد أكثر من تاجر روسي، حتى يصل العدد في بعض البيوت إلى أكثر من عشرين تاجرًا، ولكل واحدٍ من هؤلاء التجار مقعده الخاص، تحفه الجواري الجميلات اللائي حملهُن التجار للترويح عنهم، ثم لبيعهِن للبلغار[٦٢]، وكان الهم الأكبر للتجار الروس بيع سلعهم والحصول على الذهب البلغاري، الذي كان يأتي من الأراضي الإسلامية[٦٣]، وهو الأمر الذي جعلهم يتضرعون للمعبودات الوثنية، ويقدمون إليها بعض الهدايا كقرابين، داعيّن أن يُرزقوا بتاجرٍ لديه الكثير من الدنانير والدراهم[٦٤].

وإذا كان ابن فضلان قد ذكر العلاقات التجارية بين الروس والبلغار، فإن قسطنطين السابع وصف مجئ التجار الروس في أوقات السلم إلى بلاد البشناق ليشتروا الماشية والخيول والأغنام، إذ كانت أراضي البشناق بمثابة الجسر الواصل بين الروس والدولة البيزنطية؛ لأن البشناق كانوا يقطنون بجوار إقليم خرسون البيزنطي شمال البحر الأسود[٦٥]، فأصبحوا بمثابة الدولة الحاجزة بين أراضي الروس شمالًا والدولة البيزنطية جنوبًا[٦٦]، كما كان التجار البيزنطيون في إقليم خرسون يلتقون بالتجار الروس عند مستنقعات كراريون Κραριον أو فرار Vrar المحيطة بنهر الدنيبر[٦٧].

---

[٦٠] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٩. ذكر قسطنطين السابع أن الروس يبحرون جنوبًا عبر نهر الدنيبر ليصلوا إلى بلغاريا السوداء، ويعني بذلك البلغار على نهر الفولجا. قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٤٢، ص ١٥٠.

Constantine, *De Administrando Imperio*, 42, pp. 186-187.

[٦١] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٤٥. لم يعرف الروس الزراعة، إنما اعتمدوا على ما يحملونه من أغذية من أراضي البلغار. ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٥.

[٦٢] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥١.

[٦٣] طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ٢٦٢-٢٦٣.

[٦٤] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٣-١٥٤.

[65] Constantine, *De Administrando Imperio*, 1-2, pp. 48-51.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ١-٢، ص ٥٤-٥٥.

[٦٦] طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ١٣.

[67] Constantine, *De Administrando Imperio*, 9, pp. 60-61.

وكان على الروس إذا أرادوا القدوم إلى القسطنطينية للحرب أو التجارة، العبور بأراضي البشناق، وقد أفاض قسطنطين السابع وأسهب في وصف الطريق من الأراضي الروسية إلى القسطنطينية، فذكر أنهم يقلعون بسفنهم من مدينة نوفجورود Novgorod في عهد ملكهم سفياتوسلاف Sviatoslav (٩٤٥-٩٧٢م)، أو مدينة سمولينسك Smolensk، ومدينة تليوتزا Teliutza، وتشرنيجوف Chernigov، وفيشجارد Vyshegard، والجميع يسيرون بسفنهم في نهر الدنيبر Dnieper، ويتجمعون في مدينة كييف، وتسمى تلك السفن باسم "المونوكسيلا" monoxyla، وهي سفن برع السلاف في صناعتها، فإذا قدِم فصل الربيع، وذاب الجليد، وضع الروس مراكبهم في البحيرات المؤدية إلى نهر الدنيبر، فتنجرف بفعل التيار ناحية مدينة كييف، ويبدأ الروس في الإبحار من كييف تجاه الجنوب خلال شهر يونيه، فيعبرون عدة شلالات تعترض النهر، فيخرج الروس من سفنهم، ويقومون بسحبها عبر النهر بما تحمله من بضائع داخلها، حتى لا تصطدم السفن بالصخور الموجودة في قاع النهر، ويظل الحال هكذا حتى يصل الروس إلى منطقة خرسون، فينزلون في جزيرة القديس جريجوري St. Gregory، ومنها يستمرون في رحلتهم حتى يصلون إلى جزيرة القديس إيثريوس St. Aitherios، ثم يستريحون لمدة يومين أو ثلاثة، بعدها يتجهون إلى الغرب حيث نهر الدنيستر، ومن هناك يبحرون في البحر الأسود حتى مصب نهر سليناس Selinas أحد مصبات نهر الدانوب، ومن هنا تبدأ حدود مملكة بلغار الدانوب، حيث يمرون بعدة مدن بلغارية مثل كونوباس Konopas وقنسطنطيا Constantia، ومنها إلى نهر فارنا Varna، ثم يصلون إلى ميسمبريا Mesembria، ومنها إلى القسطنطينية[٦٨].

مثلت التجارة محورًا مهمًا في العلاقات البيزنطية الروسية، وظهر ذلك من خلال المعاهدات التجارية بين الجانبين أعوام ٩٠٧م و٩٤٥م[٦٩]، ولهذا اهتم الإمبراطور قسطنطين السابع في كتاباته بالإشارة إلى التجار الروس في القسطنطينية، وكان أكثر ما يُدلل على اهتمام الحكام الروس بالتجارة مع الدولة البيزنطية مرافقة حوالي ثلاثة وأربعون تاجرًا للأميرة

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٩، ص ٦٢.

[68] Constantine, *De Administrando Imperio*, 9, pp. 56-63.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٩، ص ٦٠-٦٣.

[٦٩] طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي*، ص ٢٢٨.

أولجا لدى زيارتها للقسطنطينية عام ٩٥٧م، حتى أن الإمبراطور قسطنطين السابع سمح لهم بتناول الطعام معه عند استقباله للأميرة والنبلاء الروس المرافقين لها[٧٠].

أسهب ابن فضلان عندما أتى على ذكر المعتقدات الدينية للروس، حيث رآهم بأم عينيه على ضفاف نهر الفولجا وهم يخرجون ومعهم الخبز واللحم والبصل واللبن والنبيذ ليقدموها كقرابين لخشبةٍ طويلةٍ – منصوبةٍ على ضفاف النهر – تشبه وجه إنسان، وحولها مجموعة من الأخشاب الأخرى عليها صور صغيرة، فيأتي الواحد منهم ويسجد لتلك الأخشاب، ويذكر كل ما يحمله من التجارات، ويقدم لتلك الصور بعض الهدايا كقرابين، داعيًا أن يُرزق بتاجرٍ لديه الكثير من الدنانير والدراهم؛ ليشتري منه كل ما لديه من سلع، فإنْ تعسر عليه البيع، ذهب بهدية ثانية ثم ثالثة، فإذا اشتد عليه الأمر، حمل لكل صورة من صور الأوثان هدية كرؤوس البقر والغنم أو بعض لحومها التي قام بقتلها، ويقف أمام كل صورة من صور الآلهة الصغيرة يطلب منها الشفاعة لدى الآلهة الكبيرة، ثم يقوم بتعليق رؤوس الحيوانات على الأخشاب المنصوبة، فإذا ما جنَّ الليل، أتت الكلاب لتأكل كل القرابين، فيعتقد هؤلاء الروس أن الآلهة قد رضيت عنهم[٧١].

وفي السياق نفسه، ذكر قسطنطين السابع في كتابه "**عن إدارة الإمبراطورية**" أن الروس عندما يأتون إلى جزيرة القديس جريجوري بشبه جزيرة خرسون، يذهبون إلى شجرة بلوط ضخمة يتعبدون إليها، ويقدمون لها القرابين، ويضحون بالديوك والخبز واللحم أو أي شئ يملكونه، كما يلقون هناك بعددٍ كبير من الديوك إما بذبحها أو أكلها أو تركها حيةً[٧٢].

وعلى الرغم من المعلومات القيمة التي وردت في رحلة ابن فضلان عن العقوبات الصارمة والرادعة لدى الروس عن اللصوص، أو منْ يجنحون إلى العنف المتعطشين لسفك الدماء، والذين كان يؤتى بهم إلى شجرةٍ غليظةٍ، ليُشدَّ في عنقه حبلًا وثيقًا، ثم يُعلق في الشجرة حتى تتقطع أوصاله من الرياح والأمطار[٧٣]، وكذلك المعلومات التي أفاض بها قسطنطين السابع في كتاباته عن الروس، إلا أنهما لم يتطرقا إلى النظام القضائي الروسي، والذي كان يقضي بقيام ملك الروس بالفصل في الدعاوى، فإنْ لم يرض المتخاصمين

---

[70] Constantine, *The Book of Ceremonies*, II.15 [R596-598], pp. 596-598.

[٧١] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٣–١٥٤.

[72] Constantine, *De Administrando Imperio*, 9, pp. 60-61.

قسطنطين السابع، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، ٩، ص ٦٢.

[٧٣] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢١، ص ١٥٥.

بحكمه، أمر الملك بالاحتكام إلى السيف[٧٤]، كما توضح حولية الراهب الروسي نسطور خلال القرن الحادي عشر أنه تم الاتفاق بين البيزنطيين والروس عام ٩٤٥م على العقوبات التي تُفرض على القاتل سواء كان وثنيًا أو مسيحيًا، والتي تقضي بضرب عنقه، واستيلاء أهل المجني عليه على ممتلكات ذلك القاتل، أما عقوبة الضرب فكانت الغرامة ومصادرة الممتلكات، ومن ثم إطلاق سراح المعتدي[٧٥].

أمدنا ابن فضلان بوصفٍ لا مثيل له لمشهد الموت لدى الروس، والمراسم التي تتلوه، فذكر أنه شاهد موت أحد رؤسائهم، فكانوا يحرقونهم، وقبل أن يفعلوا ذلك كانوا يعدون له ثيابه الفاخرة، ثم يعدون للفقير منهم سفينة صغيرة، ويضعونه فيها، فيقومون بحرقه، أما الأغنياء فيقومون بجمع أموالهم، ويقسمونها ثلاثة أقسام، فيتركون الثلث لأهله، والثلث الثاني يشترون به ثيابًا للمتوفي، أما الثلث الأخير فيشترون به نبيذًا يحتسونه بعد أن يقوموا بحرق سيدهم مع جاريته التي قتلت نفسها، وذكر ابن فضلان أن أتباع السيد يسألون جواريه عمنْ تموت مع سيدها، فمنْ تطوعت، تم قتلها[٧٦]، وكانت هناك امرأة ضخمة الجسم مكفهرة الوجه، يطلقون عليها "ملك الموت"، وتقوم بالإعداد لمراسم حرق السيد المتوفى، وهي منْ تقوم بقتل الجارية، وكان الروس يضعون النبيذ والفاكهة والخبز واللحم والبصل مع الميت، ويلبسونه الملابس المزركشة بالذهب، والسراويل، والأحذية، ويجعلون على رأسه قلنسوة من جلد السمور، ثم يأتون بكل أسلحته فيطرحونها بجانبه، وأخيرًا يأتون بعددٍ من الدواب، يقطعونها ويلقونها على السفينة التي سوف يُحرق فيها السيد الروسي، ومن تلك الدواب يأتوا بكلب بعد شقه نصفين، ودابتين، وبقرتين، وديكًا، ودجاجة، يقتلونها جميعًا، ويطرحونها مع الميت تمهيدًا لحرق الجميع[٧٧]، وقد أورد ابن فضلان تفاصيل مراسم قتل الجارية قبل طرحها بجانب سيدها، ثم قيام أحد أقرباء الميت بحرق جثته[٧٨]، وبعد الانتهاء من الحرق، يأتي الروس ببقايا السفينة من النهر إلى اليابسة، ويجمعونها على شكل تل، ثم ينصبون

---

[٧٤] ابن رُسته، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، ص ١٤٦.

[75] *The Russian Primary Chronicle*, pp. 73-77.

[٧٦] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٥٥–١٥٦؛ ابن حوقل، *كتاب المسالك والممالك*، ص ٢٨٦.

[٧٧] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٥٨–١٥٩.

[٧٨] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٦٢.

عليه خشبةً كبيرةً، يكتبون عليها اسم الرجل الميت واسم ملك الروس[٧٩]. وقد ذكر ابن فضلان عبارة مهمة للغاية، فعندما توجه أحد الروس إلى ابن فضلان بالقول عبر مترجمه، أخبره بأن العرب حمقى؛ لأنهم يعمدون إلى أحب الناس إليهم، فيطرحونه في التراب، فتأكله الهوام والدود، بينما يقوم الروس بحرقه بالنار، فيدخل الجنة من وقته وساعته[٨٠]. ويرى أحد الباحثين المحدثين أن استخدام الروس للسفن في حرق الموتى، كان اعتقادًا منهم أن تلك السفن هي الوسيلة التي سوف تنقلهم بعد موتهم إلى الفردوس، كما تنقل السفن المسافرين الروس عبر البحار والأنهار[٨١].

الخاتمة

من العرض السابق نجد أنه في الوقت الذي انشغلت فيه الدولة البيزنطية بصد الهجمات الروسية المتكررة على أراضيها نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلادي، كان الرحالة والجغرافيون العرب قد أحرزوا قصب السبق وألقوا أضواءً ساطعةً على الأراضي الروسية ما بين نهري الفولجا والدنيستر، ووضعوا أساسًا للكتابة الجغرافية عن الروس والأمم المجاورة لهم، وكان من أفضل هؤلاء أحمد بن فضلان، الذي ركز على بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والدينية في حياة الروس، على الرغم من أنه لم يتوغل في أراضيهم بالقدر الكافي، بل شاهدهم على ضفاف الفولجا كتجار، وهذا يدل على الدقة التي امتاز بها ابن فضلان في مشاهداته، فأصبحت كتاباته هي الأساس الذي اعتمد عليه الجغرافيون القُدامى في وصف بلاد الروس، كما اعتمد الكُتاب المحدثون على مشاهدات ابن فضلان؛ ليسدوا بعض الثغرات في التاريخ الروسي القديم، وذلك لتأخر الكُتاب الروس في تدوين تاريخهم حتى القرن الحادي عشر الميلادي على يد نسطور الراهب، فانفرد ابن فضلان بذكر الحياة الاجتماعية لدى الروس من مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ونظافة، كما أتى على ذكر بلاط الملك ومستشاريه وخليفته، كما انفرد بوصف مشاهد الموت وحرق الموتى.

---

[٧٩] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٦٥.

[٨٠] ابن فضلان، *رسالة ابن فضلان*، ٢٢، ص ١٦٤.

[81] Koptev, A., "Ritual and History: Pagan Rites in the Story of the Princess' Revenge, (the Russian *Primary Chronicle*, under 945-946)," ***Mirator*** 11:1/2010, pp. 23-24.

أما على الجانب البيزنطي؛ فقد كانت كتابات قسطنطين السابع من أول وأهم الكتابات البيزنطية عن الروس، والتي اعتمد في تدوينها على تقارير السفراء البيزنطيين إلى تلك الأصقاع، وعلى روايات التجار الروس أنفسهم، فانفرد قسطنطين السابع بذكر الطريق عبر نهر الدنيبر من نوفجورود حتى القسطنطينية، كما انفرد بذكر المرتزقة الروس العاملين في الجيش البيزنطي، والذين اشتركوا في حملتين على كريت أعوام ٩١١م و ٩٤٩م، كما ذكر المخصصات المالية التي حصل عليها هؤلاء، وكذلك عدد السفن التي حُمل عليها الروس إلى كريت، خاصةً في حملة عام ٩٤٩م، وهذا يدل على أسبقية قسطنطين السابع في ذكر هؤلاء المرتزقة، الذين كان يُعتقد أن عملهم في الجيش البيزنطي في فرقة الحرس الإمبراطوري يبدأ بعام ٩٨٨م. ولم يكتف قسطنطين بذلك، بل كان فياضًا في وصف زيارة الأميرة الروسية أولجا، وهو الأمر الذي افتقرت إليه المصادر البيزنطية وكذلك العربية.

صورة (١): تفصيل من خريطة العالم لابن حوقل
توضح موطن الروس والقبائل المجاورة لهم.

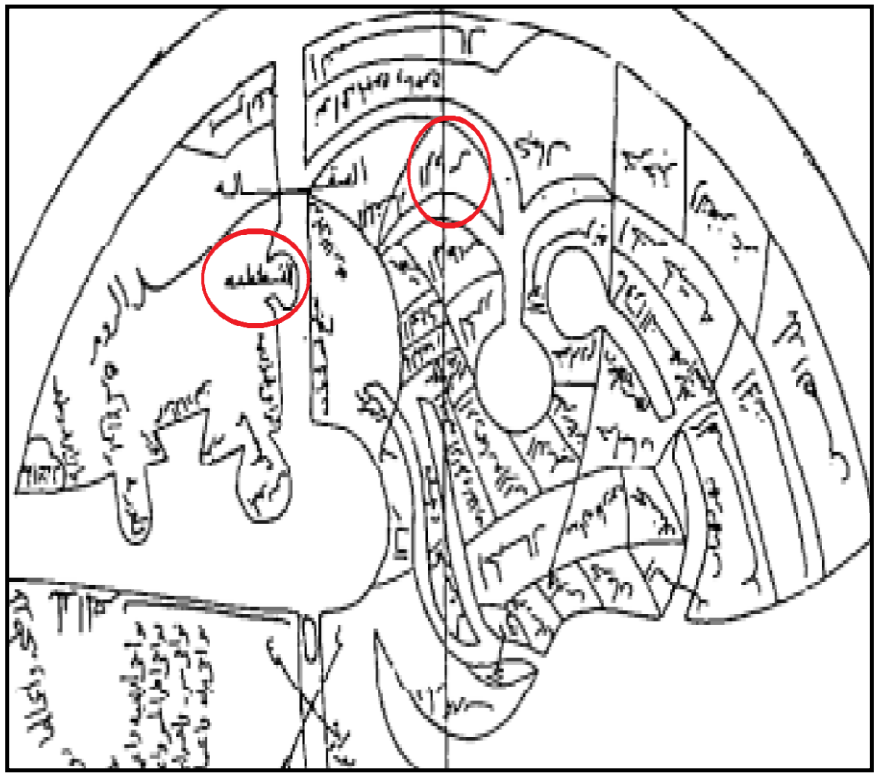

نقلًا عن: محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص ٢١١.

صورة (٢): خريطة العالم لابن حوقل.

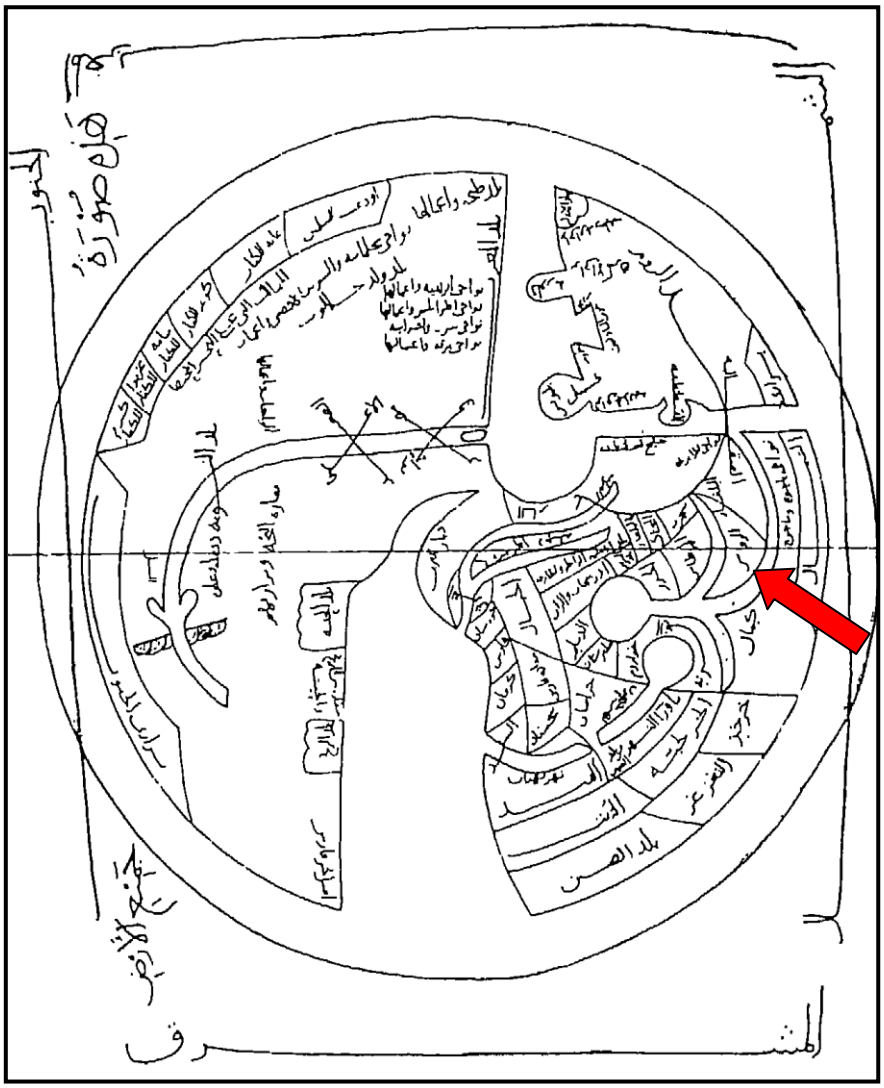

نقلًا عن: محمد محمود محمدين، التراث الجغرافي الإسلامي، ص ٢١١.

صورة (٣): المرتزقة الفارانجيون الشماليون في الجيش البيزنطي، صورة من مخطوط يوحنا سكيليتزيس، المكتبة الوطنية بمدريد، منتصف القرن الثاني عشر الميلادي.

نقلا عن:

Tsamakda, V., *The Illustrated Chronicle of Ioannes Skylitzes in Madrid*, Leiden, 2002, fol. 26v, p. 421.

صورة (٤): عادة دفن الموتى لدى الروس، صورة بريشة الفنان الروسي هنري سميراديسكي (١٨٤٥-١٩٠٢م)، متحف التاريخ، موسكو.

نقلًا عن: www.alrahalah.com1980 × 1400

المصادر والمراجع المستخدمة في البحث

المصادر الأجنبية:

- Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, 2 Vols. Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 13-14 (Bonn 1838).
- Constantine Porphyrogenitus, *De Administrando Imperio,* Ed. G. Moravcsik, Trans. R. J. H. Jenkins, (Washington, D.C. 1967).
- Constantine Porphyrogennnetos, *De Cerimoniis Aulae Byzantinae*, 2 Vols. Ed. I. Reiskii, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 7-8, (Bonn 1829-1830); *Le livre des cérémonies*, 2 Vols. Trad. A. Vogt, 2me ed., Paris, 1967; *The Book of Ceremonies*, 2 Vols. Trans. A. Moffatt and M. Tall, **Byzantina Australiensia** 18 (1-2), (Canberra, 2012).
- Georgius Monachus, *Vitae Recentiorum Imperatorum*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838).
- John Skylitzes, *A Synopsis of Byzantine History 811-1057*, Trans. J. Wortley, (Cambridge University Press 2010).
- Symeon Magister, *Annales*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838).
- *The Annals of St-Bertin*, Trans. J. L. Nelson, **Ninth-Century Histories** 1, (Manchester University Press: Manchester and New York, 1991).
- *The Russian Primary Chronicle, Laurentian Text*, Trans. S. H. Cross & O. P. Sherbowitz-Wetzor, Cambridge, 1953.
- Theophanes Continuatus, *Chronographia*, Ed. I. Bekker, **Corpus Scriptorum Historae Byzantinae** 48 (Bonn 1838).

المصادر العربية والمعربة:

- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي، ت ٣٦٧هـ/٩٧٥م)، *كتاب المسالك والممالك*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٧٣م.
- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)، *كتاب المسالك والممالك*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٨٩م.
- ابن رُسته (أبو علي أحمد بن عمر، ت ٣١٠–٣٣٧هـ/٩٢٢–٩٤٨م)، *الأعلاق النفيسة*، مج ٧، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٩٢م.

- ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، ت بعد ٣١٢هـ/٩٢٤م)، *رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م*، تحقيق/ سامي الدهان، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت ١٩٨٧م.
- ابن فقيه الهمداني (أبوبكر أحمد بن محمد، ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، *مختصر كتاب البلدان*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن ١٨٨٥.
- الإصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي، ت قبل ٣٥٠هـ/٩٦١م)، *المسالك والممالك*، تحقيق/ محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ٢٠٠٤م.
- الخوارزمي (أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، ت ٢٣٢هـ/٨٤٧م)، *صورة الأرض من المدن والجبال والبحر والجزائر والأنهار مستخرج من كتاب بطلميوس القلوزي*، نشره/ هانز فون مريك، فيينا، ١٩٢٦م.
- الدمشقي (شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري، ت)، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*، نشره/ أ. ميهرين، ليبيزج، ١٩٢٣م.
- قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، *إدارة الإمبراطورية البيزنطية*، عرض وتحليل وتعليق/ د. محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- مجهول، *حدود العالم من المشرق إلى المغرب*، تحقيق وترجمة عن الفارسية/ السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *أخبار الزمان ومنْ أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران*، القاهرة، ١٩٣٨م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *التنبيه والإشراف*، ليدن، ١٨٩٣م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين، ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، ج ١، باريس، ١٨٦١م.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، *معجم البلدان*، خمسة أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، *كتاب البلدان*، تحقيق/ م.ي.دي خويه، ليدن، ١٨٦٠م.

المراجع الأجنبية:

- Hraundal, T.J., "The Rus in Arabic Sources: Cultural Contacts and Identity," Ph.D. Diss. Centre for Medieval Studies, University of Bergen, 2013.
- Kažhdan, A., "De Administrando Imperio", **Oxford Dictionary of Byzantium** 1, p. 593.
- Koptev, A., "Ritual and History: Pagan Rites in the Story of the Princess' Revenge, (the Russian *Primary Chronicle*, under 945-946)," ***Mirator*** 11:1/2010, pp. 1-54.
- McCormick, M., "De ceremoniis aulae byzantinae", **Oxford Dictionary of Byzantium** 1, p. 595.
- Montgomery, J.E., "Ibn Faḍlān and the Rūsiyyah," ***Journal of Arabic and Islamic Studies*** 3 (2000), pp. 1-25.
- Shepard, J., "The origins of Rus' (c.900–1015)," In *The Cambridge History of Russia*, Vol. 1 (From Early Rus' to 1689), Ed. M. Perrie, (Cambridge University Press, 2006), pp. 47-72.
- Theotokis, G., "Rus, Varangian and Frankish Mercenaries in the Service of the Byzantine Emperors (9^{th}-11^{th} C.) Numbers, Organisation and Battle Tactics in the Operational Theatres of Asia Minor and the Balkans," ***BYZANTINA ΣYMMEIKTA*** 22 (2012), pp. 125-156.

المراجع العربية والمعربة:

- خليل حسن الزركاني، "الانطباعات الاقتصادية للرحالة العرب عن روسيا"، ***مجلة التراث العلمي العربي***، عدد ٧، بغداد، ص ٣٧-٥٠.
- زكي محمد حسن، *الرحالة المسلمون في العصور الوسطى*، القاهرة ٢٠١٣م.
- طارق منصور محمد، *الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥-١٠٥٤م*، دار مصر العربية للنشر، القاهرة، ٢٠٠١م.
- عبد العزيز محمد عبد العزيز، "المرتزقة الإنجليز في الإمبراطورية البيزنطية ١٠٦٦-١٢٠٤م"، ***حولية التاريخ الإسلامي والوسيط***، كلية الآداب – جامعة عين شمس، مج ٤ (٢٠٠٤-٢٠٠٥م).
- محمد محمود محمدين، *التراث الجغرافي الإسلامي*، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م.

The Russians in the Tenth Century AD between Ibn Fadlan and Constantine VII

Muhammad Zayed Abdullah

Abstract:

The Muslim Arabs rubbed with the peoples of Eastern Europe through the military battles waged by the Islamic state against the Byzantine Empire, Armenia, and the Jewish kingdom of the Khazars. With the beginning of the ninth century AD / the third AH, the issue of interest in geographical and historical sciences emerged in the Islamic state. There was a lot of authorship on roads, kingdoms, and descriptions of many regions. Many Muslim geographers wrote several geographical works during that period. As soon as the Russians appeared on the scene of events during the ninth century AD, Arab geographers and Byzantine historians realized this. Ahmed Ibn Fadlan spoke about the Russians on his trip to the Volga River in 309 AH/ 921 AD. On the other hand, Emperor Constantine VII (945-959 AD) described the Russians, and showed their relationship with the Byzantines, the Bulgarians, the Petchenegs, and the Khazars in his works. Here we make a comparison between the writings of Ibn Fadlan and Constantine VII to complete the mental image of the Russians through the Arab and Greek sources during the tenth century AD.

Keywords:

Russians, Ibn Fadlan, Constantine VII, Byzantines, Volga, Geography.